

دكتور / بدر عبد الحميد هميسه

١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الكريم المنان الذي خلق الإنسان وعلمه البيان ، وأنـزل علـى عبـده الفرقان ، وأعطاه جوامع الكلم ، ورفع ذكره بين الأمم .

وبعد . . ؛

فإن استهلالك الكلام بمقدمة شائقة رائقة سوف يكون لها أبلغ الأثـر فـي نفـس السامع ، بل وتكسبك أذهان الحضور وتركيزهم منذ اللحظة الأولى ؛ فرب مقدمـة موفقة شدت عقول الناس وانتباههم ومشاعرهم ، وأخرى غيـر موفقـة أو غيـر معبرة تجعل من الصعوبة بمكان الاستحواذ على انتباه السامعين.

لذا فقد كان العلماء والخطباء والأمراء والوجهاء يهتمون بفن تعبيري مهم هـو : فن براعة الاستهلال؛ وهو أن يقدم الخطيب بين يدي موضوعه مقدمة فيها إشارة لما يريد أن يتكلم عنه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ويزيل الرهبة بـين السـامع والخطيب .

وقد تميز فن براعة الاستهلال في لغتنا العربية الجميلة بخصائص ميزته عن باقي اللغات ، حتى عُد هذا الفن من فنون البلاغة العربية وأولاها العلماء عناية فائقة .

وهذه الرسالة : (**الجمال في فن بـراعة الاستهلال**) تتحدث هذا الفن متضمنة :

أولاً : معنى براعة الاستهلال .

ثانياً : أهمية براعة الاستهلال .

ثالثاً : نماذج من براعة الاستهلال .

والله أسأل أن يغفر زلاتي وأن يؤمن روعاتي ، وأن يجنبنا الزلل في القول والعمل.

راجي عفو ربه

دكتور / بدر عبد الحميد هميسه

hamesabadr@yahoo.com

في : ١٩ من رجب ١٤٣٢ هـ = ٢٠ من يونيو ٢٠١١ م

أولاً : معنى براعة الاستهلال

البراعة لغة:كمال الفضل ، والاستهلال لغة:الابتداء، كما في اللسان. لسان العرب لابن منظور مادة (برع)، ومادة (هلل).

وبراعة الاستهلال اصطلاحا:ضرب من ضروب الصنعة التي يقدمها أمراء البيان ، ونقاد الشعر، وجهابذة الألفاظ ، بأن يبدأ المتكلم بمعنى ما يريد تكميله ، وإن وقع في أثناء الكلام. **انظر : تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المصري، ص١٦٨.**

قال السيوطي في الإتقان : "براعة الاستهلال : هو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله " . **الإتقان للإمام جلال الدين السيوطي ١ / ٣٥٤.**

وقال صاحب تحفة المحتاج : " بَرَاعَةُ الِاسْتِهْلَالِ) هِيَ أَنْ يُورِدَ مُصَنِّفٌ أَوْ شَاعِرٌ أَوْ خَطِيبٌ فِي أَوَّلَ كَلَامِهِ عِبَارَةً تَدُلُّ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنْهُ" . **السفاريني : تحفة المحتاج في شرح المنهاج ٥١/١.**

وقال أبو البقاء : براعة الاستهلال ومعناها عند أهل البلاغة أن يذكر المؤلف في طالعة كتابه ما يشعر بمقصوده ويسمى بالإلماع وأما براعة المطلب فهي أن يلوح الطالب الطلب بألفاظ عذبة مهذبة منقحة مقترنة بتعظيم الممدوح خالية من الإلحاح والتصريح بل تشعر بما في النفس دون كشفه. **الكليات ٣٦٤/١.**

وقد ذكر ابن المعتز فنا في محاسن الكلام سماه (حُسن الابتداءات). **البديع لابن المعتز ص٧٥ .**

وتعد (براعة الاستهلال) فرعا فرعه المتأخرون مما يسمى (حسن الابتداءات) ، ويرى السيوطي أن براعة الاستهلال أخص من حسن الابتداء ، لأن البراعة لابد فيها من الإشارة إلى ما سيق الكلام لأجله ، بخلاف حسن الابتداء فلا يشترط فيه ذلك . **معترك الأقران للسيوطي ١ /٧٥**

غير أن الخطيب القزوينى لا يرى فرقا بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال ، فكلاهما شيء واحد، وبأيهما سميت كنت مصيبا، فأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود، ويسمى براعة الاستهلال . **الإيضاح للخطيب القزوينى ص٤٨٥.**

ثانياً : أهمية براعة الاستهلال :

١- أنه يقرب الموضوع إلى المستمع ويجذب الانتباه لما يقال : فالمتحدث الذي يحسن البداية يستطيع أن يحسن النهاية ، والجواب يظهر من عنوانه كما يقولون ،فالمتحدث الذي يبدأ حديثه ببداية موفقة ويستهله بكلام بليغ ومؤثر فإن المستمع من البداية يسلم له أذنيه ويعطيه قلبه وعقله ، فيخرج الكلام من القلب ويدخل مباشرة إلى القلب .

٢- يدل على براعة المتحدث وتمكنه من أدواته اللغوية : فالمتحدث الجيد يستطيع من البداية أن يثبت قوة شخصيته ، وحسن تمكنه من أدواته ، ومعرفته بما يقول ، انظر إلى خطبة الصديق أبي بكر رضي الله عنه التي استهل بها خلافته والتي قال فيها : " أَمّا بَعْدُ أَيّهَا النّاسُ فَإِنّي قَدْ وُلّيت عَلَيْكُمْ وَلَسْت بِخَيْرِكُمْ فَإِنْ أَحْسَنْت فَأَعِينُونِي ، وَإِنْ أَسَأْت فَقَوّمُونِي ، الصّدْقُ أَمَانَةٌ وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ وَالضّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيّ عِنْدِي حَتّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقّهُ إنْ شَاءَ اللّهُ وَالْقَوِيّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتّى آخُذَ الْحَقّ مِنْهُ إنْ شَاءَ اللّهُ لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللّهِ إلّا ضَرَبَهُمْ اللّهُ بِالذّلّ وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطّ إلّا عَمّهُمْ اللّهُ بِالْبَلَاءِ أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِذَا عَصَيْت اللّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ . قُومُوا إلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمْكُمْ اللّهُ " .

السهيلي : الروض الأنف ٤/٤٥٠.

فكيف وصل رضي الله عنه إلى قلوب الناس بتلك الكلمات المنتقاة التي أبانت عن منهجه في الحكم وعن قوة شخصيته .

خلاف هذا الرجل الذي أبان في أول كلامه عن قلة عقله ، قال الزمخشري في ربيع الأبرار(٤٥٧/١) : اجتمع الشعراء عند موت المهدي، واندس بينهم إسكاف،

فأنكروه فسألوه، فقال: شاعر، فاستنشدوه فقال: مات الخليفة أيها الثقلان، فأعجبوا بمفتتح شعره، فقالوا: تمر في المصراع الثاني، فقال: فكأنني أفطرت في رمضان. فاستضحكوا منه.

وحين دخل الشاعر ذو الرّمة على هشام بن عبد الملك بن مروان:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ مُنْسَكِبُ * كَأَنَّهُ مِنْ كُلًى مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ**

سَرَب: أي: قناةٌ تَسِيل.وكان بعينيْ هشام رَمَشٌ فهيَ تدمَعُ أبداً، فظنَّ أنَّه يُعَرّض به، فقال: "بل عينك" وأمَرَ بإخراجه.

وقيل: لمَّا بنَى المعتصم قصْرَهُ بميْدَانِ بغداد، وجمع عظماء دولته، وجلس فيه في يوم الاحتفال به، أنْشَدَهُ إسحاقُ الموصلي:

يَا دَارُ غَيَّرَكِ الْبِلَى وَمَحَاكِ * يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي أَبْلاَكِ**

فتطيّر المعتَصِمُ بهذا الابتداء وأمَر بهدْمِ الْقَصْر.

وأخذ الداعى العلوي على ابن مقاتل الضرير بدأه يوم المهرجان بقوله:

غرة الداعي ويوم المهرجان * لا تقل بشرى، ولكن بشريان**

فتشاءم الداعي العلوي، وقال له: يا أعمى تبدأ بهذا يوم المهرجان.. يوم الفرح والسرور! ، وذلك حين بدأ ابن مقاتل قصيدته بالنهى عن قول بشرى. وقد قال له الداعي العلوي: هلاّ قلت: إن تقل بشرى فعندي بشريان.

فانظر إلى عدم الاهتمام في الحديث ببراعة الاستهلال كيف يمكن لها أن تحدث نفوراً وجفاءً بين السامع والمتلقي .

٣- يبين قيمة اللغة العربية وتنوع فنونها : فبراعة الاستهلال، هو من أرقّ فنون البلاغة وأرشقها، وحدّه أن يبتدئ المتكلم كلامه بما يشير إلى الغرض المقصود من غير تصريح بل بإشارة لطيفة، وإيماءة بعيدة أو قريبة، والاستهلال في الأصل: هو رفع الصوت، وسمي الهلال هلالا لأن الناس يرفعون أصواتهم عند رؤيته .

ثالثاً : نماذج من براعة الاستهلال :

أ- نماذج من القرآن الكريم :

افتتاح السور وخواتيمها دليل على أن هذا الكلام لا يقوله بشر إنما هو من لدن حكيم خبير ، قال تعالى : " الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) **سورة هود.**

وبدايات السور والآيات القرآنية كلها تؤكد حقيقة القرآن وأنه النموذج الاسنى والأسمى للبلاغة والبيان ؛ لأنه جاء من قبيل العليم الرحمن ، ومن الأمثلة على براعة الاستهلال في السور القرآنية :

١- سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن،قال الله تعالى فيها : " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) **سورة الفاتحة.**

فقد جاءت هذه السورة مشتملة على جميع مقاصد القرآن الكريم ؛ ، وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة ، فقد رسم أسلوب الْفَاتِحَة بإيجاز الْمُقدمَة لِئَلَّا تمل نفوس السامعين بطول انْتِظَار الْمَقْصُود وَهُوَ ظَاهر فِي الْفَاتِحَة .

٢- براعة الاستهلال في سورة الإسراء ، قال سبحانه : " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) **سورة الإسراء** ، فإنه لما كان أمراً خارقاً للعادة بدأه بلفظ يشير إلى كمال القدرة، وتنزُّه الله عن صفات النقص، وعلو النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المقام أنسب معه أن يسبَّح الله، وينزّه ولكل عجيبة سبحان.

٣- ما جاء على لسان الهدهد في سورة النمل ، فالهدهد قد أعطانا درساً رائعاً في براعة الاستهلال ، قال تعالى : " فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) **سورة النمل** .

فالنبأ هو الخبر الذي شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لاشك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ اسْتَفْرَغتْ قَلْبَ المُخبَرِ لتلقي الخبر، وأوْجَبَتْ له التشوقَ إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال، وخطاب التهييج.

٤- مطلع سورة الرحمن،قال تعالى : " الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) **سورة الرحمن** ، فهي التى وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها (عروس القرآن)، والتى لم تتسمّ سورة من سور القرآن باسم من أسمائه تعالى غيرها، كما لم يتصدر سورة من سور القرآن اسم من أسمائه تعالى غير هذه السورة.

واستفتاحها البارع بالرحمن في غاية الروعة والجمال، ومناسباً تمام المناسبة لما سردته السورة من نعم الله وآلائه.

واستفتاح السورة بلفظ (الرَّحْمَنُ) الذي لا يسمى به أحد سواه عز وجل هو إشارة إلى ما في هذه السورة المباركة من تجليات الرحمن بالرحمة على عباده.. فهي سورة الرحمة العامة الشاملة، فكل آية من آياتها رحمة راحمة، ونعمة سابغة، يَرِدُ الأنام مواردها فتلقاهم رحمة الرحمن الرحيم بالفضل والإحسان، وباللطف والعطف، حتى تلك الآيات التي تحمل العذاب إلى الكافرين والضالين، فإنهم - مع هذا العذاب الذي هم فيه - واقعون تحت رحمة الله، ولولا هذه الرحمة لتضاعف لهم العذاب الواقع بهم أضعافاً كثيرة، لا تنتهي عند حد. إن هذا العذاب الذي هم فيه هو رحمة واسعة، ونعمة سابغة بالإضافة إلى ما كانوا يستحقون من عذاب، وإلى ما في قدرة الله من عذاب يتعذب به هذا العذاب نفسه !.

٥- سورة الحاقة التي قال الله فيها : " الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)

سورة الحاقة ، فهذه المشاهد القوية الرهيبة في السورة لا يناسبها إلا استهلال في قوتها، فجاء مطلع السورة هكذا (الْحَاقَّةُ* مَا الْحَاقَّةُ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ*؟) و«الحاقة بلفظها وجرسها ومعناها تلقى في الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار. وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شئ برفع الثقل طويلاً، ثم استقراره استقراراً مكيناً. رفعه: في مدة الحاء بالألف. وجده: في تشديد القاف بعدها. واستقراره: بالانتهاء بالتاء المربوطة التي تنطق - عند الوقف - هاء ساكنة».

ولفظ (الْحَاقَّةُ) في دلالته اللغوية هو أنسب لفظ يناسب اتجاه السورة وموضوعها، فالحاقة هي التي تحق فتقع، أو تحق فتنزل بحكمها على الناس، أو تحق فيكون فيها الحق، وهكذا يكون الأمر يوم القيامة.

وبراعة استهلال السورة بلفظ (الْحَاقَّةُ) لا يقف عند حد الدلالة اللغوية للفظة وإيقاعها وإيماءاتها، وإنما تتجلى براعة الاستهلال أيضاً في إلقاء (الْحَاقَّة) كلمة مفردة، لا خبر لها في ظاهر اللفظ، ثم تتبع باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم: (مَا الْحَاقَّةُ) ثم يزداد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل، وإخراج المسألة عن حدود الإدراك والعلم: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ؟).. ثم يسكت ولا يجيب على هذا السؤال، ويدع قارئ المطلع وسامعه واقفاً أمام هذا الأمر المستهول المستعظم، الذي لا يدريه، ولا يتأتى له أن يدريه، لأنه أعظم من أن يحيط به العلم والإدراك ثم يلقاه هذا النبأ: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ)... وتمضى السورة إلى ختامها.

٦- سورة الملك ، التي افتتحت بقوله سبحانه : " تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) **سورة الملك.**

إن هذا المطلع الجامع الموحى هو مفتاح السورة كلها؛ فإن حقيقة الملك، وحقيقة القدرة تتفرع سائر الصور التي عرضتها السورة، وسائر الحركات المغيبة والظاهرة التي نبهت القلوب إليها. فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة، وكان الابتلاء بهما. ومن الملك والقدرة كان خلق السموات السبع الطباق.. لا خلل فيها ولا نقص ولا اضطراب. ومن الملك والقدرة كان تزيين السماء الدنيا بالمصابيح وجعلها رجوما للشياطين. ومن الملك والقدرة كان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها. ومن الملك والقدرة كان العلم بالسر والجهر، وكان جعل الأرض ذلولا للبشر، وكان الخسف والحاصب والنكير على المكذبين الأولين. ومن الملك والقدرة كان إمساك الطير في السماء، وكان القهر والاستعلاء، وكان الرزق كما يشاء، وكان الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة، وكان الذرء في الأرض والحشر، وكان الاختصاص بعلم الآخرة، وكان عذاب الكافرين، وكان الماء الذي به تقوم الحياة، وكان الذهاب به عندما يريد جل شأنه. فكل حقائق السورة وموضوعاتها، وكل صورها وإيماءاتها مستمدة من إيماء ذلك المطلع البارع ومدلوله الشامل الكبير: (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، وحقائق السورة وإيماءاتها تتوالى في السياق وتتدفق بلا توقف، مفسرة المدلول المجمل الشامل لذلك المطلع البديع.

٧- سورة المطففين ، التي قال تعالى فيها : " وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) **سورة المطففين.**

افْتِتَاحُ السُّورَةِ بِاسْمِ الْوَيْلِ مُؤْذِنٌ بِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ على وَعِيد فَلفظ وَيْلٌ مِنْ بَرَاعَةِ الِاسْتِهْلَالِ.

٨- سورة الضحى، التي قال سبحانه فيها : " وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) **سورة الضحى** ، فتشعر من مطلعها أنك أمام لمسة من حنان، ونسمة من رحمة، وطائف من ود. ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع، وتسكب الأمن والطمأنينة واليقين. ذلك أن السورة كلها خالصة للحبيب محمد ، فيها تسرية له من ربه وتسلية وترويح وتطمين .. كلها أنسام من الرحمة، وألطاف من القربى، وهدهدة للروح المتعب، والقلب الموجوع.

٩- سورة الإخلاص ، التي قال تعالى فيها : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) **سورة الإخلاص** ، فتشعر هنا من البداية بقوة شعار التوحيد وجلاله وعظمته ، وأن هذا الإله منزه عن كل نقص .

١٠- سورة الناس ، التي قال تعالى فيها : " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) **سورة الناس** ، لما جاءت سورة الفلق للاستعاذة من شر ما خلق من جميع المضار البدنية وغيرها العامة للإنسان وغيره ، وذلك هو جملة الشر الموجود في جميع الأكوان والأزمان ، ثم وقع فيها التخصيص بشرور بأعيانها من الفاسق والساحر والحاسد ، فكانت الاستعاذة فيها عامة للمصائب الخارجة التي ترجع إلى ظلم الغير ، والمعايب الداخلة التي ترجع إلى ظلم النفس ولكنها في المصائب أظهر ، وختمت بالحسد فعلم أنه أضر المصائب ، وكان أصل ما بين الجن والإنس من العداوة الحسد ، جاءت سورة الناس متضمنة للاستعاذة من شر خاص ، وهو الوسواس ، وهو أخص من مطلق الحاسد ، ويرجع إلى المعايب الداخلة اللاحقة للنفوس البشرية التي أصلها كلها الوسوسة ،

وهي سبب الذنوب والمعاصي كلها ، وهي من الجن أمكن وأضر ، والشر كله يرجع إلى المصائب والمعايب.

ب- نماذج من الحديث الشريف:

١- خطبة الوداع التي استهلها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " أَيُّها النَّاس، اسمعوا قولي،فَإِنّيَ لاَ أَدْرِي، لعَليّ لاَ أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامي هَذَا، بهذا الموقف أبدا أيها الناس إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ . أيها النّاسُ إن رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وإنّ أَبَاكُمْ واحِدٌ ، كُلُّكُمْ لآدمَ ، وآدمُ من تُراب، أكرمُكُمْ عندَ اللهِ أتْقَاكُمْ وليس لعربيّ فَضْلٌ على عجميّ إلاّ بالتّقْوى، أَلاَ هَلْ بلَّغْتُ، اللّهُمّ اشهد . **أخرجه البخاري برقم ٤٥، ومسلم برقم ٣٠١٦، ٣٠١٧.**

فانظر إلى براعة الاستهلال الذي أخذ بمجامع القلوب ، وجعل الدموع تغادر المآقي بعد قوله صلى الله عليه وسلم : اسمعوا قولي،فَإِنّيَ لاَ أَدْرِي، لعَليّ لاَ أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامي هَذَا.

٢- عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.**أخرجه"أحمد"٣٥/١(١٦٨) و"البُخَارِي"٣/١(١) و"مسلم"٤٨/٦(٤٩٦٣).**

وبراعة الاستهلال هنا في استخدامه صلى الله عليه وسلم لأداة الحصر والقصر (إنما) ليؤكد على أهمية النية وسلامة القصد في قبول الأعمال .

٣- عَنِ الشَّعْبِيِّ ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ، قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ ، وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ: إِنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ ، لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى

الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ في الْحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى ، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ.**أخرجه "أحمد" ٢٦٩/٤(١٨٥٥٨) و"البُخَارِي" ٢٠/١(٥٢) و"مسلم"٥٠/٥(٤١٠١).**

فلقد استهل النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث بأداة التأكيد (إن) ليؤكد على أن الحلال بين والحرام بين وأن العاقل لا يحتار أبدا في معرفة الحلال من الحرام .

٤- عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ:كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالإِمَامُ رَاعٍ ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ في أَهْلِهِ رَاعٍ ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ في بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهْىَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ في مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.قَالَ فَسَمِعْتُ هَؤُلاَءِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَحْسِبُ النَّبِىَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ وَالرَّجُلُ في مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.**أَخْرَجَهُ أحمد ١٢١/٢(٦٠٢٦) و"البُخَارِي" ٦/٢ و٦/٤(٢٧٥١) و"مسلم" ٨/٦(٤٧٥٥).**

وبراعة الاستهلال هنا في قوله صلى الله عليه وسلم (كلكم راع) ليلفت نظر السامع إلى أن أمر المسؤولية وحمل الأمانة أمر يهم جميع الناس ولا يختص بفئة معينة .

٥- عَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يَكْرَهَ الْعَبْدُ أَنْ يَرْجِعَ عَنِ الإِسْلاَمِ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ ، وَأَنْ يُحِبَّ الْعَبْدُ الْعَبْدَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ ، عَزَّ وَجَلَّ. **أخرجه أحمد ١٧٤/٣(١٢٨١٤) و"مسلم" ٧٦.**

وفي هذا الاستهلال البارع يبين صلى الله عليه وسلم أن للإيمان طعم وحلاوة لا يستشعرها إلا من ذاق فعرف .

٦- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ.. **أخرجه مالك الموطأ ١١٨. وأحمد ٣٣٥/٣(٧٢٠٨) و مسلم ١٥١/١(٥٠٨).**

فحرف الاستهلال هنا (ألا) يأخذ بمجامع القلوب ويستجلب النفوس إلى ما يقال.

ت- نماذج من الأدب العربي :

ينبغي أن يراعى في الابتداءات ما يقرب من المعنى ، وما يكون فيه اللفظ عذبا وسهلا ولقد كان الأدباء والشعراء يبدأون خطبهم وأشعارهم ببدايات تجذب انتباه السامعين وتأخذ بألباب المتلقين ، ومن أمثلة ذلك :

١- خطب قس بن ساعدة الإيادي بسوق عكاظ فقال أيها الناس اسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ونجوم تزهر وبحار تزخر وجبال مرساة وأرض مدحاة وأنهار مجراة . إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا يقسم قس بالله قسما لا إثم فيه إن لله دينا هو أرضى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه إنكم لتأتون من الأمر منكرا . **أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ٣٨/١.**

٢-خطبة السيدة عائشة في الانتصار لأبيها : يروى أنه بلغ عائشة رضي الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضي الله عنه فأرسلت إلى أزفلة من الناس فلما حضروا أسدلت أستارها وعلت وسادها ثم قالت : أبي وما أبيه أبي والله لا تعطوه الأيدي ذاك طود منيف وفرع مديد هيهات كذبت الظنون أنجح إذ أكديتم وسبق إذ ونيتم سبق الجواد إذا استولى على الأمد فتى قريس ناشئا وكهفها كهلا يفك عانيها ويريش مملقها ويرأب شعبها ويلم شعثها حتى حليته قلوبها ثم استشرى في دين الله فما برحت شكيمته في ذات الله عز و جل حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيى فيه ما أمات المبطلون وكان رحمه الله غزير الدمعة وقيذ الجوانح شجي النشيج فانقضت

إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون به (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) . **أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ١٥٩/١.**

٣- الخنساء تحرض أولادها على القتال : حضرت الخنساء حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال فقالت لهم يا بني أنتم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ووالله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غبرت نسبكم وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية. **أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ١٥٩/١.**

٤- قال العتبى أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم وأصلحوا آخرتكم تصلح دنياكم وإن امرأ ليس بينه وبين آدم أب حي لمعرق في الموت . **زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ٣٤٠٢.**

٥- وفي الشعر قيل : إن أحسن ابتداء ابتدأت به العرب قول النابغة:

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ * وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ**

– وقولُ امرئ القيس في أوَّل معلقته:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ * بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ**

قالوا: إنّه في هذه البداية البارعة وقَفَ واستَوْقَف، وبَكَى واستَبْكَى، وذكَرَ الحبيبَ ومَنْزِلَهُ فِي مِصْرَاعٍ واحِد.

– ومن أحسن ما ابتدأ به مولد قول إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

هل إلى أن تنام عيني سبيل * إن عهدي بالنوم عهد طويل**

– ويحسن أن يبتدئ في المديح بمثل قول أبزون الغماني:

على منبر العلياء جدك يخطب * وللبلدة العذراء سيفك يخطب**

– وقول المتنبي :

عدوك مذموم بكل لسان * * * وإن كان من أعدائك القمران

وقوله في مدح سيف الدولة :

لكل امرئٍ مِنْ دَهْرِهِ ما تَعَوّدَا * * * وعادَةُ سيفِ الدّوْلةِ الطعنُ في العدى

– وقول أبي تمّام يُهنّئُ المعتصمَ بفتح عمُّوريّة، بادِئاً قصيدتَهُ باستهلالٍ بارعٍ يــرُدُّ فيه على مزاعم المنجّمين الّذين زعمُوا أنَّ عَمُّورية لا تفتَحُ في ذلك الوقت الذي تمّ فَتْحُها فيه:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ * * * فِي حَدِّهِ الحدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ*

بِيضُ الصَّفَائِحِ لاَ سُودُ الصَّحَائِفِ فِي * * * مُتُونِهِنَّ جَلاَءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

– وقول أشْجَع السُّلَمي:

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلاَمُ * * * خَلَعَتْ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الأَيَّامُ

– وقول محمد بن الخياط طويل:

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى * * * ولم أدر أن الجود من كفه يعدي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى * * * أفدت وأعداني فأنفدت ما عندي

– وقول أمير الشعراء أحمد شوقي :

ولد الهدى فالكائنات ضياءُ * * * وفم الزمان تبسم وثناءُ

– وقول الشاعر حافظ إبراهيم :

لا تلم كفى إذا السيف نبا * * * صح منى العزم و الدهر أبى

رب ساع مبصر في سعيه * * * أخطأ التوفيق فيما طلبا

مرحبا بالخطب يبلونى إذا * * * كانت العلياء فيه السببا

* * * * * * *

الفهرس

